

دار باقون للنشر والتوزيع

مناقاة

حبيرة محمود

شاهات

حبیبة محمود

أسم الكتاب: مآهات

اسم الكاتبة: حبيبة محمود

المنسقة: فاطمة محمد

تصميم الغلاف: فاطمة محمد

الناشر: دار ياقوت للنشر والتوزيع

غير مسموح بنقل أو تصوير أو نشر شيء من
محتوى الكتاب بدون موافقة الكاتب ودار النشر
ومن يفعل ذلك يحاسب قانوني

الهاء...

عزيز القارئ،

أعتذر عن كل هذا الحزن الذي ستقرأه، وعن كون أول ما يعرفك بي هو هذا الجانب الثقيل مني.

وأعتذر لنفسي أيضاً، لأنني حين بدأت الكتابة بدأت من حيث كنت أقف... في منتصف شعوري لا في نهايته. لكن لا تظن أنني أسكن الحزن،

أو أن حياتي لا تعرف سوى الكتابة والانكسار. في داخلي فرح صغير، نجول، أحاول أن أبقيه حياً رغم كل ما يحيط بي،

وأحاول أن أزرعه في أيامي كل يوم من جديد. أنا فقط أكتب ما أشعر به حين يعلو الصوت بداخلي، وحين يصبح الصمت أثقل من أن يُحتمل.

لذلك لا تأخذ عني صورة كاملة من سطرٍ واحد، ولا تحكم عليّ من لحظةٍ كنتُ فيها ضعيفة.

فهذه الصفحات ليست حياتي كلها،
بل جزءٌ منها... الجزء الذي احتاج أن يُقال كي أستطيع أن
أستمر.

وإن كان في هذه الكلمات حزن،
ففيها أيضاً محاولة للنجاة،
ومحاولة لفهم نفسي أكثر،
ومحاولة صغيرة لصنع ضوءٍ في داخلي لا ينطفئ.

سَاهَات

لا أعرف متى بدأتُ أضيع.

أكان ذلك حين صدّقت أكثر مما ينبغي؟
أم حين تمسّكت بأشياء كان عليها أن ترحل؟
أم حين أخفيتُ ما أشعر به حتى امتلأت روعي بما لا يُقال؟

كل ما أعرفه أنني استيقظتُ يوماً،
فوجدتُ نفسي أسير في طرقٍ كثيرة،
كلها تشبّهني،
ولا واحدة منها تقود إليّ.

ومنذ ذلك الحين،
وأنا أجمع بقاياي من الذكريات،

ومن الخيبات،
ومن الأمنيات التي لم تجد طريقها إلى الحياة.

هذه الصفحات ليست حكاية،
ولا محاولة للبحث عن إجابات.

إنها مجرد آثارٍ تركتها روحي وهي تعبر مناهاتها الخاصة.

فإن وجدتَ نفسك بين السطور،
فربما لأن القلوب التائهة تعرف بعضها جيداً.

في البراية كانت تؤلني.

الكلمات التي لم تُقل،
الفراغ الذي تركه البعض،
والوحدة التي كانت تزورني كل ليلة.

كنت أقاومها جميعاً،
وأحاول الهرب منها بكل ما أملك.

لكن شيئاً غريباً حدث مع الوقت...

اعتدتُها.

اعتدتُ الغياب حتى لم أعد ألتفت إليه،
واعتدتُ الخيبة حتى لم تعد تفاجئني،

واعدتُ أن أبتلع ما أشعر به وكأن الأمر طبيعي.

أحياناً أخاف من هذا الاعتياد أكثر من خوفي من الألم نفسه.

لأن الحزن حين يؤلمك، تعرف أنه موجود.
أما حين تعتاده...
فإنه يصبح جزءاً منك.

تصبح الأشياء التي كانت تكسر قلبك مجرد تفاصيل عادية،
ويصبح الصمت لغةً تتقنها،
والوحدة مكاناً تعرف طريقه جيداً.

لا أعلم إن كان هذا نضجاً أم هزيمة،
شفاءً أم استسلاماً.

كل ما أعرفه أنني لم أعد الشخص الذي كان يرتبك من أول
خيبة،
ولا الشخص الذي كان يبكي من أول فقد.

لقد تعبف فقط...

حتى صار الألم مألوفاً.

الأشياء التي لم تحدث

أحياناً لا نحزن على ما حدث،
بل على ما كان يمكن أن يحدث.

على الأحاديث التي تخيلناها ولم تُقال،
واللقاءات التي انتظرناها ولم تأتِ،
والنهايات الجميلة التي رسمناها في خيالنا ثم استيقظنا على غيرها.

هناك حياة كاملة نعيشها داخل رؤوسنا،
نُحب فيها أكثر،
وننجو أكثر،
ونحصل على الأشياء التي تمنيناها طويلاً.

ثم تمر الأيام،

ونكتشف أن أكثر ما يؤلنا ليس الواقع،
بل تلك الاحتمالات التي ماتت قبل أن تولد.

أحياناً أنظر إلى الماضي،
ولا أشتاق إلى ما عشته،
بل إلى ما تمنيت أن أعيشه ولم يحدث.

إلى الكلمات التي انتظرت سماعها،
وإلى الطرق التي لم أسلكها،
وإلى النسخة التي كان يمكن أن أكونها لو سارت بعض الأمور
بشكل مختلف.

وكم هو غريب أن تحمل في قلبك حزناً على أشياء لم تكن
موجودة أصلاً،
وكأن الروح لا تفقد ما امتلكته فقط،
بل تفقد أيضاً ما حلمت به كثيراً.

ربما لهذا السبب تؤلنا بعض الأمنيات أكثر من الذكريات،
لأن الذكرى كانت حقيقةً وعاشت معنا،
أما الأمنية...
فبقيت طوال عمرها تنتظر فرصةً لم تأتِ.

في أول حزنٍ لي... كان فقدان شخصٍ عزيزٍ عليّ،
لحظة واحدة فقط كانت كفيلة بأن تُبدّل كل ما أعرفه عن
نفسي،
كأن الحياة انكسرت داخلي قبل أن أفهم ما الذي حدث.

لم أعد أعرف من أنا بعدها،
وكأنني خرجت من نفسي دون عودة،
تغيّرت ملامحي في دقائق،
بهت لون وجهي، وانطفأ شيء في عيني لم أكن أعلم أنه قابل
للانطفاء أصلاً.

انسكبت طاقتي دفعة واحدة،
وسقطت عافيتي إلى الأرض كأنها لم تكن،
وخسرت جزءاً من صحي في يومٍ واحد،
لا لأنني ضعفت فجأة... بل لأن الألم كان أكبر من احتمالي.

شعرتُ بشيءٍ ثَقِيلٍ ومؤَلِمٍ في صدري،
شيءٍ لا يشبه الحزن العادي،
كأنه يريد أن يخرج ولا يجد طريقاً،
فيضغط عليّ من الداخل حتى يكاد يُطفئ أنفاسي.

كنت أقف ولا أقف،
أتنفس ولا أشعر أنني أتنفس كما يجب،
أنظر حولي ولا أصدق أن كل شيء مستمر بينما داخلي
توقف تماماً.

وفي تلك اللحظة فهمت أن الفقد ليس ذكرى...
بل انكسارٌ يعيش في الجسد قبل الروح،
ويترك في الإنسان نسخةً أخرى لا تعود كما كانت أبداً.

يَدَّعون أن الأيام كفيلة بالنسيان... يا لها من كذبة!
 الأيام لا تحو ما يسكننا، بل تُعيد ترتيبه في أماكن أعمق،
 تُخفّض صوته أحياناً، تجعله أقل ضجيجاً،
 لكنها لا تقتله، ولا تُخرسه كما نظن.

نمضي في الحياة وكأننا تجاوزنا،
 نضحك، نتحدث، نبدو أكثر هدوءاً مما كنا،
 ثم يأتي موقفٌ صغير، ذكرى عابرة، رائحة، أو اسم،
 فيعيدنا إلى البداية كما لو لم يمرّ شيء.

وتكتشف أن ما سكن الروح يوماً
 لا يخرج منها بسهولة،
 بل يظلّ هناك، محتبئاً، ينتظر لحظة ضعف ليظهر من جديد.

الأيام لا تُشفينا كما نحب أن نصدق،

هي فقط تُعلِّنا كيف نعيش مع ما انكسر فينا دون أن ننهار
كل مرة،

كيف نبتم رغم أن شيئاً بداخلنا ناقص،
وكيف نكمل الطريق ونحن نحمل في داخلنا أثراً لا يختفي.

فنصبح أكثر هدوءاً...

لكن ليس أكثر خفة،

نبدو أقوى...

لكننا فقط أكثر تعوداً على الاحتمال،

لا أكثر نسياناً.

أحياناً أأأأأ لأوأأ بأأأ،
 كأأ أأأ لا أأأ أأأأ أأأأ،
 أأأأ أأأ أأأ، وأأأأ أأأ أأأ أأأ،
 وأأأ أأأ أأأ أأأأ لا أأأأ أأأ.

إذا أأأأ أأأأ أأأأ أأأ،
 لا أأأ كأأ أأأأ أأ أأأ،
 أأ أأأ أأ أأأأ أأ أأ أأأأ أأأأ،
 وأأ أأأأ أأأ أأأ أأأ وأأأ أأأأ.

أأأأ أأ أأأ أأأأ،
 أأ أأأأ أأأ أأأ أأ أأأ أأأ،
 أأأ أأأأ لا أأأأ أأأ أأأ،
 أأأأ بأأأ، وأأأأ أأ أأأ أأ أأأ.

تنهار التفاصيل الصغيرة بداخلي دون أن يشعر أحد،
وتتراكم المشاعر في صدري حتى تعجز الكلمات عن حملها،
فأصمت... ليس لأنني لا أشعر،
بل لأنني أشعر أكثر مما أستطيع أن أشرح.

ومع ذلك أستمر،
حتى وأنا مثقلة بما لم يُشفَ بعد،
حتى وأنا أحاول أن أتعلم كيف أأكل الطريق بقلبٍ يتعب
سريعاً.

أُسعر أُنني أكبر من عمري —

لا أعلم متى حدث ذلك،

لكنني أشعر دائماً أنني أكبر من عمري الحقيقي بكثير.

كأن الأيام مرّت فوق قلبي أسرع من اللازم،

وتركت في روجي تعباً

لا يُشبه أعمار الفتيات في مثل سنّي.

أفكر كثيراً،

أشعر كثيراً،

وأحمل داخلي ثِقلاً

كأنني عشتُ حيواتٍ عديدة في حياةٍ واحدة.

أصبحتُ أميل للصمت أكثر،

لأماكن الهادئة،

للجلوس وحدي طويلاً،

كأنّ روجي لم تعد تحتل الضجيج.

أضحك أحياناً،

لكن دائماً هناك شيءٌ حزين

محتبئ خلف تلك الضحكة.

أشعر أن قلبي تعلم مبكراً

ما كان يجب عليه تعلّمه،

الفقد،

الخذلان،

والانتظار الطويل الذي يرهق الروح.

ولهذا...

أبدو هادئة للجميع،

بينما في داخلي

امرأةٌ مُتعبة

تحاول فقط

أن تصل إلى يومٍ تشعر فيه بالراحة أخيراً.

لا أعرف كيف يمرّ الوقت —

أشعر أحياناً أنّ أيامي تتشابه بطريقة مُخيفة،

كأنّ الوقت يمرّ من حولي

وأنا ثابتة في مكاني.

أستيقظ،

أقوم بالأشياء نفسها،

وأعود في نهاية اليوم

بالشعور ذاته من التعب والفراغ،

كأنّ روحي لم تعيش هذا اليوم فعلاً.

أحياناً أنظر إلى نفسي فجأة

وأدرك أنّ شهراً كاملاً مرّت،

دون أن أشعر بها،

ودون أن يحدث شيء

يستحقّ أن يبقى في الذاكرة.

أصبح الوقت بالنسبة لي

شيئاً غامضاً،

يمضي سريعاً حين أريد التمسك بلحظة جميلة،

ويصبح ثقيلاً جداً

حين أكون مُتعبة.

والمخيف حقاً،

أنني لم أعد أعرف

هل أنا أعيش أيّامي فعلاً...

أم أنني فقط

أحاول تجاوزها واحدةً تلو الأخرى

أخاف أن يمرّ العمر بأكمله هكذا،

دون أن أشعر أنني عشته حقاً،

ودون أن أجد تلك اللحظة

التي تجعلني أقول أخيراً:

“ها أنا حيّة... ولست فقط أقاوم.

أعيش داخل رأسي أكثر من الواقع —

أعتقد أنني أعيش داخل رأسي أكثر مما أعيش في العالم
الحقيقي.

أفكر كثيراً،

أتخيل كثيراً،

وأعيد المواقف في ذهني مراراً

حتى تصبح أكثر وضوحاً داخلي

من الأشياء التي تحدث فعلاً.

قد أجلسُ وسط الناس بهدوء،

بينما رأسي ممتلئ بعشرات الأصوات،

الذكريات،

والأسئلة،

والاحتمالات التي لا تنتهي.

أرهق نفسي بالتفكير في كل شيء،

في الكلام الذي قيل،
والكلام الذي لم يُقَل،
وفي الأشياء التي كان يمكن أن تحدث
لو أنّ الحياة اختارت طريقاً آخر.
ولهذا يبدو عقلي دائماً مُتعباً،
حتى في الأيام الهادئة،
كأنّ داخلي لا يعرف كيف يصمت.
أحياناً أتمنى لو أنّني أستطيع
أن أعيش اللحظة كما هي،
دون تحليل،
ودون خوف،
ودون كلّ هذا الضجيج الذي يملأ رأسي.
لكنني منذُ سنوات
أعيش داخل أفكاري أكثر من حياتي،
وكأنّني سجينٌ عقلٍ
لا يتوقّف عن الدوران أبداً.

مقبرة الذكريات

أخفيتُ بداخلي أشياءً أكثر مما أبوحْتُ به يوماً،
 حتى امتلأتُ روعي بما لم يجد طريقه إلى الكلمات.
 خبأتُ خيباتٍ صغيرة ظننتُ أنها ستمر،
 فكبرت بصمتٍ حتى صارت جزءاً مني.
 واحتفظتُ بأحاديث طويلة لم تُكتب لها النهاية،
 وبمشاعر وقفت عند حافة الاعتراف ثم عادت إلى الداخل
 خائفة.

تركتُ كثيراً من الدموع تجفّ في عيني قبل أن تسقط،
 وكثيراً من الأمنيات تموت في قلبي قبل أن ترى النور.
 حملتُ ذكرياتٍ حسبتها عابرة،
 لكنها مضت وتركت في روعي أثراً لا يمحوه الزمن.

ومع الأيام،
تراكم كل شيء فوق كل شيء،
حتى أصبحتُ أشبه بغرفةٍ قديمة،
مليئة بصناديق مغلقة لا أتذكر ما بداخلها،
لكنني أشعر بثقلها كلما مررت بقربها.
ولم أعد أعرف...
هل يؤلمني ما حدث فعلاً،
أم يؤلمني أنني لم أتجاوزه كما ادّعت؟
وهل ما زلت أشتاق إلى ما فقدت،
أم إلى الشخص الذي كنته قبل أن أفقده؟

كل ما أعرفه أن هناك أشياء دفنتها منذ زمن،
لكنها ما زالت حية بما يكفي لتوقظ قلبي كلما ظننتُ أنني
نجوت

أصبحتُ غريباً عن أشياءٍ كنتُ أظنها جزءاً مني.
غريباً عن الأماكن التي حفظت ضحكاتي،
وعن الطرق التي كنتُ أعبرها بقلبٍ ممتلئ بالحياة.

لم يتغير العالم كثيراً،
لكن شيئاً ما في داخلي تبدّل.
أصبحت أنظر إلى الأشياء ذاتها،
ولا أشعر بالشعور ذاته.

كبرتُ بما يكفي لأفهم أن بعض الأحلام لا تتحقق،
وأن بعض الأمنيات لا يكتب لها سوى أن تبقى أمنيات.
كبرتُ بما يكفي لأعرف أن ليس كل من نحبهم يبقون،
وأن ليس كل من يعدوننا بالنجاة ينجون معنا.

أحياناً أتأمل نفسي وأتساءل:

في أي منعطفٍ أضعتُ ذلك الشخص الذي كنتُهُ؟
وأيْن ذهبت تلك الروح التي كانت ترى في الغد فرصةً
جديدة،
لا عبثاً جديداً؟

أفتقد بساطتي القديمة،
حين كنتُ أفرح بالأشياء الصغيرة،
وأحزن ثم أنسى،
وأثق دون خوفٍ من الخذلان.

أما الآن،
فأحمل في قلبي من الذكريات ما يكفي ليجعلني أتردد قبل كل
خطوة،
وأحمل من الخيبات ما يجعلني أبتسم بحذر،
وكأنني أخشى أن تدفعني السعادة ثمناً باهظاً مرةً أخرى.

ومع ذلك...

ما زال بداخلي شيءٌ صغير يقاوم،
شيءٌ يرفض أن يستسلم تماماً،
ويؤمن أن الأيام، مهما أثقلت القلب،
لن تستطيع أن تطفئه بالكامل.

لعلّ أجمل ما في الإنسان أنه ينكسر،

ثم يمضي.

يتألم،

ثم يمضي.

وفقد أشياءً كان يظن أنه لن يعيش بعدها،
ثم يمضي أيضاً.

لكن بعض الندوب تبقى شاهدةً على كل ما مررنا به،
لتذكرنا أن هناك أشياء لم تقتلنا...
لكنها لم تتركنا كما كنا أبداً.

تركْتُ كل الأشياء خلفي، ليس هروباً ولا ضعفاً، بل لأنني أدركت أخيراً أن بعض المعارك لا تستحق السيوف، وبعض القلوب لا تستحق أن تُرهق أكثر مما أرهقتني.

تخلّيت عن الضجيج، عن محاولات التبرير، عن كل ما كان يسحب من داخلي شيئاً جميلاً دون أن أشعر، عن التفاصيل التي كانت تجرّني إلى التعب وأنا أظنها حياة.

لم أعد أبحث عن إثبات نفسي لأحد، ولا عن إقناع من لا يريد أن يفهم، ولا عن مكانٍ يرهقني لأبقى فيه فقط لأنني تعودت.

تعلمت أن الصمت أحياناً نجاة، وأن الابتعاد ليس خسارة، بل مساحة أتقّس فيها من جديد، وأن راحتي ليست رفاهية، بل حقّ لا يجوز أن أتنازل عنه.

تركت كل شيء...

لأجد نفسي كما كنت تستحق أن تكون منذ البداية،
أهدأ، أبسط، وأقرب إلى قلبي.

أبدأ من جديد بخطواتٍ لا تحمل ثقل الماضي،
بروحٍ لم تعد تلهث خلف أحد،
وقلبٍ يفهم أخيراً أن السلام ليس نهاية الطريق...
بل هو الطريق نفسه.

واجهتُ العالم وخيباته وحدي، بلا جيشٍ ولا سلاح،
 واجهتُ فراقَ من أحببت، وخيبةَ من وثقتُ به، وتعاسةَ
 الحظِّ حين يقسو بلا رحمة. تحمّلتُ قسوةَ الأيام، وكلمات
 الناس التي تُقال وكأنّها لا تجرح، وخيبات الدراسة، والوحدة،
 وكلّ ذلك الثقل الذي كان يسقط فوق قلبي دفعةً واحدة.
 كنتُ الجيشَ والقائد، والجندي المنهك في آخر المعركة، أُرِبتُ
 على نفسي كلّما انكسرت، وأُجبرها على النهوض وكأنّه لا يحقّ
 لها التعب. أخفيتُ ضعفي طويلاً حتى ظنّ الجميع أنّي قويّة،
 بينما الحقيقة أنّي كنتُ أقاوم فقط، أقاوم كي لا أسقط
 أمامهم، كي لا يروا هذا الخراب الذي يكبر داخلي بصمت. لا
 أحد يعلم كم مرّة انهرتُ وحدي، ولا كم مرّة شعرتُ أنّي
 انتهيت، ثم عدتُ للحياة بقلبٍ أكثر تعباً وروحٍ أقلّ قدرةً على
 الاحتمال، ومع كلّ ذلك... ما زلتُ أحاول النجاة، وكأنّها
 آخر ما تبقى لي.

يعجبني أن أتعامل مع الحزن كما لو كان كائناً حياً يزورني دون موعد،

لا أقاومه ولا أهرب منه، بل أستقبله بهدوءٍ غريب،
أجلسه بجانبني كضيفٍ ثقيلٍ أعرف أنه لن يطيل البقاء،
لكنني أتعلم كيف أتحمّل حضوره دون أن أنهار.

أتعامل معه كأن بيننا معرفة قديمة لا تُفهم،
كأننا التقينا كثيراً من قبل ولم يعد هناك حاجة للشرح،
فأتركه يأخذ مساحته، وأمنح نفسي مساحة أخرى من الصمت.

أحياناً أخرج معه في نزهة قصيرة،
أمرّ به على تفاصيل اليوم، على الشوارع التي أعرفها جيداً،
وأصنع أن كل شيء عادي بينما داخلي يحاول أن يتأقلم معه.

لا أحاربه كما كنت أفعل،

ولا أطلب منه الرحيل بسرعة،
بل أتركه يجلس حتى يهدأ من تلقاء نفسه،
كأن الحزن... يحتاج فقط أن يفهم لا أن يُطرد.

وفي النهاية،
أعلم أن وجوده لا يعني نهايتي،
بل يعني أنني ما زلت أشعر،
وأن قلبي رغم كل شيء... ما زال حيًا.

لا أعلم لماذا يبدو جميع أصدقائي مثقلين بالوجع، كأنّ كل واحدٍ منهم مرّ بصدمة، أو حزنٍ طويل، أو فراقٍ ترك فيه فراغاً لا يُملأ، أو خذلانٍ غيرٍ شيئاً في داخله إلى الأبد. لم أجد بينهم روحاً سليمة أستند إليها، ولا قلباً هادئاً يأخذ بيدي نحو النور، كأنني أبحث عن الطمأنينة في أماكن اعتادت الألم. أجلسُ دوماً وحدي، أقرأ، أتصفّح، وأتأمل، أحاول أن أملأ هذا الفراغ بأيّ شيء... إلا الناس. وحين أفتح هاتفي، لا أجد رسائل اطمئنان، ولا سؤالاً بسيطاً يربّت على قلبي، ولا حتى حديثاً عابراً يخفّف هذا الصمت، فأغلقه... وأشعر أن وحدتي أصدق من الجميع. أجد نفسي غارقةً في حزنٍ وكآبةٍ مفرطة، في انطواءٍ يزداد يوماً بعد يوم، وفي بُعدٍ يجعلني غريبةً حتى عن نفسي. لم أعد أحتمل الألم، ولا الحديث المُرهِق للروح، كأنّ قلبي فقد قدرته على الاحتمال. ولا أعلم... لماذا اخترتُ دراسة علم النفس، وأنا التي تنهكني أبسط المشاعر، وتُثقلني أدق التفاصيل، وكأنني خلقت لأفهم الألم... لا لأتحمله. إلى متى سأظل أنتظر؟ أنتظر شخصاً ينتشلي من هذه

العتمة المتوحّشة، ويمدّ لي يداً تُطمئنني أن الطريق ليس مظلماً
إلى هذا الحد. تعبْتُ من الانتظار، ومن هذا الثقل الذي أحمله
وحدي، كأني عالقةٌ بين رغبةٍ في النجاة، وخوفٍ من أن
أبقى هكذا... للأبد.

أحياناً يراودني شعورٌ غريب... كأن روعي ليست جديدة على هذا العالم، كأنها عاشت حياةً سابقة قبل أن تسكن هذا الجسد، وعرفت أشياء لم أتعلمها، واشتأقت لأماكن لم أزرها من قبل. أقف في مكانٍ ما لأول مرة، ومع ذلك أشعر بألفةٍ عجيبة، كأنني مررتُ من هنا يوماً، وكأن الجدران تعرف اسمي أكثر مما أعرفها.

أحب أشياء لا يعرف سببها أحد؛ موسيقى قديمة لم أعش زمنها، طرقاً ضيقة لم أسلكها، حكايات أشعر أنني كنت جزءاً منها. أحياناً ألتقي بشخصٍ فأحس أنني أعرفه منذ زمنٍ بعيد، لا أبحث عن تفسير، فقط أطمئن... كأن روعي تذكرتا بعضهما فجأة.

أساءل: هل يمكن أن تحمل الروح آثار رحلاتٍ سابقة؟ هل يمكن أن تكون المشاعر التي لا نفهمها بقايا حياةٍ أخرى لم تكتمل؟ ربما لهذا أشعر أحياناً بحنينٍ لا أعرف مصدره،

حنينٍ لزمانٍ لم أعشه، ووجوهٍ لم أرها، وأحاديثٍ لم تحدث...
لكنها تسكنني.

وربما ليست حياةً سابقة بالمعنى الذي نفهمه، بل عمقٌ خفيٌّ في
الروح، يجعلها أكبر من عمرها، وأقدم من أيامها، وأكثر معرفةً
مما يبدو عليها. كل ما أعرفه أن داخلي شيءٌ لا يبدأ معي...
ولا ينتهي بي، شيءٌ يمشي معي في الطرق كأنه تذكُّرٌ بعيد،
يهمس لي أنني لستُ هنا للمرة الأولى، وأن روحي تعرف هذا
العالم أكثر مما أظن

وأحياناً أشعر أنني أعيش على أكثر من صفحة في الوقت نفسه،

صفحة واحدة للجسد، وأخرى للذاكرة، وثالثة لمشاعرٍ لا أحد يراها.

أستيقظ صباحاً وأجد نفسي في العالم المألوف،
لكن جزءاً مني يسير بعيداً عن كل ما حولي،
ينظر للأشياء بعينٍ لا تفهمها اللغة،
ويشعر بما لا يشعر به أحد.

في تلك اللحظات، أكتشف أنني لا أختبر العالم كما هو،
بل أختبره كما أنا...

كأنني أرى الناس، الأماكن، الأصوات،
من خلف ستائرٍ شفافة لا يراها أحد،
أرى التفاصيل الصغيرة، الهفوات العابرة، الحكايات التي لم تُرو،

وأشعر بعاطفةٍ غريبةٍ تجاه كل شيء،
حتى تجاه الأشياء التي لم ألمسها بعد.

ثم أعود للجسد والعالم المألوف،
وأحاول أن أبدو طبيعية،
أضحك، أتكلم، أعيش كما يجب،
لكن الجزء الآخر مني لا يهدأ،
يظل يراقب كل شيء بعينٍ لا تعرف النوم،
يكتب قصصاً في صمت،
قصصاً لن يقرأها أحد أبداً،
عن شيءٍ لم يحدث بعد،
عن شعورٍ لم يولد بعد،
عن نفسي التي لم تلتحق بالعالم بعد.
وهكذا أعيش بين عالمين،
دائماً نصف حي في أحدهما،
ونصف حي في الآخر،
دون أن يفهم أحد،
دون أن أعرف أنا نفسي أحياناً.

أحياناً أقف أمام المرأة وأحسّ أن وجهي ليس هو الذي أعرفه، وأن عيني تحملان خطوطاً جديدة لم أرها من قبل. لم ألاحظها حين كنت صغيرة، لم ألاحظ الأيام وهي تمر، ولم أعد أذكر متى تغيّرت تلك التفاصيل الصغيرة التي تصنع شخصيتي الآن.

أشعر أنني كبرت فجأة، وكأن الزمن قرر أن يسرق مني سنوات، دون أن يطلب إذناً، دون أن ألاحظ، دون أن أستعد لذلك. الأشياء التي كنت أحبها، الأماكن التي كنت أهرب إليها، وحتى الكلمات التي كنت أكتبها... كل شيء أصبح يختلف قليلاً، وقلبي يحاول أن يلحق بي، بينما أنا أركض خلف لحظات لم تعد ملكي.

كل مرة أنظر فيها حولي، أرى نفسي مختلفة عن الفتاة التي كنت، وأدرك أن بعض الأشياء التي اعتبرتها دائماً، اختفت

أو تغيرت. لم يعد كل شيء واضحاً كما كان، ولم يعد العالم يبدو
كما كنت أراه، وأنا داخله صغيرةً وبريئةً.

أحياناً أشعر بالحيرة: هل أنا من تغيرت، أم أن الحياة هي التي
سرقَت مني الطفولة بهدوء؟
لكن ما أعرفه جيداً هو أنني الآن هنا، أعيش كل لحظة،
أحاول أن أستوعب نفسي الجديدة، وأتعلّم أن أحب هذا
الشخص الذي كبرت فجأةً وأصبح جزءاً مني... حتى لو جاء
دون سابق إنذار.

(الزمن الذي تسلل إليّ أنا التي لم أنتبه لها نضوج بلا سابق إنذار)

لأول مرة أشعر أنني لستُ شبيهةً بالمكان الذي يحيطني
 كأنني أقف فيه بجسدي فقط... بينما روحي تقف في مكانٍ
 آخر لا يراه أحد. أنظر حولي، كل شيء يبدو عادياً للجميع؛
 الأصوات، الوجوه، الأحاديث اليومية، لكنني أشعر بغربةٍ
 خفيفة لا تُرى... ولا تُفسّر. ليس لأن المكان سيئ، ولا لأن
 الناس قساة، بل لأن قلبي ببساطة لا يجد نفسه هنا. كأن
 داخلي حكايةً مختلفة لم يفهمها هذا العالم بعد، وكأنني وُضعتُ
 في صفحةٍ لا تشبه سطورها خطي. أحاول كثيراً أن أتكيف،
 أن أبدو طبيعية مثلهم، أضحك في الوقت المناسب، وأتحدث
 عن أشياء لا تعنيني حقاً، لكن شيئاً صامتاً في داخلي يبقى
 بعيداً... كأنه ينتظر مكاناً آخر يشبهه أكثر. وأتساءل أحياناً:
 هل المشكلة في المكان... أم في قلبي الذي يبحث دائماً عن شيءٍ
 لا يعرف اسمه؟ هل سيأتي يومٌ أشعر فيه أنني أنتمي فعلاً، أن
 الأرض التي أقف عليها تعرفني كما أعرفها، وأني لستُ مجرد
 عابرةٍ تمرّ بهدوء ثم تمضي؟ لا أعلم... لكنني أعلم شيئاً واحداً

فقط، أن هذا الإحساس رغم غربته يهمس لي بهدوء: أن لي
مكاناً ما لم أصل إليه بعد.
روحٌ في غير موطنها

منذ أن فتحت عيني على الدنيا، وأنا أعيش بين أهلي كما لو كنت غريبة في بيتٍ مألوف، أتنفس نفس الهواء، وأسمع نفس الكلمات، وأرى نفس الوجوه، ومع ذلك... لم أر نفسي بينهم. عشرون عاماً مضت، كل يوم فيها يعلنني شيئاً عن الصمت الذي يملأ الفراغ، وعن الكلام الذي يخرج بلا معنى، وعن القلب الذي يحنّ ولا يجد ما يواسيه. عاشرتهم، اقتربت منهم، وعاشت تفاصيل حياتهم الصغيرة والكبيرة، ولم أجد بين ما أخذته منهم شيئاً يلبس روحي، شيئاً يجعلني أقول: هنا أستطيع أن أكون أنا.

لقد كانوا عليّ دائماً مثل الظل، قرييون بلا قرب، يعرفونني بلا معرفة، يحكمون عليّ بلا علمٍ بحقيقة نفسي. تعلمت منهم الصبر، وتعلمت منهم التظاهر، وتعلمت منهم أن العالم لا يرحم القلوب المختلفة. ومع كل ذلك، لم أستسلم، لم أتنازل عن ما أشعر به، ولم أخف أن أكون مختلفة.

فالنفس، مهما كانت مربوطة بالأهل أو المكان، لا تُقاس بمقاييس أحد. وهي التي تعرف متى تمشي بمفردها، ومتى

تتشبث بعالم لا يشبهها، ومتى تبسّم رغم كلّ الفقدان، ومتى
تبكي بصمت دون أن يُلاحظها أحد. عشرون عاماً من العشرة
الطويلة، ومن المراقبة الصامتة، علمتني أن لا أحد يمكنه أن
يأخذ مني شيئاً حقيقياً إلا ما أسمح له به، وأني، رغم كل
شيء، سأظل أنا... كما خلقت، حرة، مختلفة، ومستقلة.

أحياناً أشعر أنني لا أعبّر الأيام كما يفعل الآخرون،
بل أترك شيئاً مني في كل مرحلةٍ أعيّشها،
كأن الحياة لا تسمح لنا بالعبور دون أن تأخذ جزءاً صغيراً من
أرواحنا معها.

أترك نسخةً مني في الأماكن التي أحببتها،
ونسخةً أخرى في الأشخاص الذين مرّوا بحياتي،
وأخرى في الأحلام التي انتظرتها طويلاً ثم لم تأتِ كما تمنيت.

أشعر أنني كلما تقدمت خطوة،
ابتعدت أكثر عن شخصٍ كنته يوماً،
ذلك الشخص الذي كان يرى الحياة بعينين أبسط،
ويصدق الأشياء بسهولة أكبر،
ويحلم دون أن يحسب احتمالات الخيبة.

لهذا حين أنظر إلى الماضي،

لا أشتاق فقط إلى الأشخاص أو الأيام،
بل أشتاق أحياناً إلى نفسي القديمة،
إلى تلك النسخ التي تركتها خلفي دون أن أدرك أنني أودعها
للمرة الأخيرة.

الحياة لا تأخذ من أعمارنا فقط،
بل تأخذ من دهشتنا الأولى،
ومن براءتنا، ومن بعض أحلامنا،
وتترك لنا بدلاً منها فهمًا أعمق للأشياء وثقلاً أكبر في القلب.

ومع ذلك نمضي،
نبسم، نتحدث، ونكمل الطريق كأن شيئاً لم يتغير،
بينما تحدث في داخلنا تحولات هادئة لا يلاحظها أحد.

تتغير بصمتٍ شديد،
حتى إننا قد نفق يوماً أمام مرآةٍ قديمة،

وتتذكر من كُنا،
ثم ندرك أن تلك الملامح ما زالت تشبهنا...
لكن ذلك الإنسان الذي كان يسكنها،
رحل منذ زمن بعيد.

وربما أكبر أحزان العمر،
ليست في فقد الآخرين،
بل في اكتشاف عدد النسخ التي فقدناها من أنفسنا ونحن
نحاول النجاة.

زحامُ المسامر

أريدُ أحياناً أن يتوقّف كلّ شيء،

الوقت،

التفكير،

وهذا الشعور المُرهِق الذي لا يتركني أبداً.

لم أعد أحتمل هذا الزحام داخلي،

كأنّ قلبي يحمل عدّة أرواحٍ دفعةً واحدة،

كلّ روحٍ تبكي لسببٍ مختلف.

في اللحظة نفسها

قد أشعر بالحزن والخوف والحنين،

وأذكّر أشياء قديمة فجأة،

فتضيق روحي وكأنّها تحتنق من نفسها.

أرهقني هذا العمق،

وهذه الحساسية التي تجعلني أشعر بكلّ شيء

بشكلٍ مُضاعف،

حتى الكلمات العابرة
تظلّ عالقةً في قلبي طويلاً.
أحياناً أتمنى لو أنني أستطيع
إيقاف شعورٍ واحد فقط،
أن أعيش لحظةً هادئةً
دون هذا الضجيج الذي لا ينام داخلي.
لكنني منذُ وقتٍ طويل
أعيش وكأني غارقةً في نفسي،
أحاول النجاة من أفكاري،
ومن قلبي،
ومن هذا الثقل
الذي لا يراه أحد.
وكلّ ما أريده الآن...
لحظةً سلامٍ واحدة،
أشعر فيها
أنّ روحي أخفّ قليلاً من كلّ هذا التعب.

أريد أن أوقف الزمن عند تلك اللحظة التي كنتُ فيها بخير،
لا لأن حياتي كانت مثالية، بل لأن قلبي لم يكن يحمل كل
هذا التعب.

أريد أن أعود إلى النسخة التي كانت تمام دون أن تثقلها
الذكريات،

وتستيقظ دون أن تفتش في قلبها عن شيءٍ فقدته بالأمس.

أشتاق إليّ قبل أن أعرف كيف يُغيّر الغياب ملامح الروح،
وقبل أن أكتشف أن بعض الخسارات لا تُعوّض،
وأن بعض الأشخاص حين يرحلون لا يأخذون أنفسهم فقط،
بل يأخذون معهم جزءًا منّا لا يعود أبدًا.

كم أتمنى لو أن الزمن يرحم المشتاقين،
فيمنحهم دقيقةً واحدة فقط يعودون فيها إلى ما أحبّوا،
ليعانقوا اللحظات التي أفلتت من أيديهم،
وليقولوا الكلمات التي تأخروا في قولها،

وليعيشوا مرةً أخرى شعور الأمان الذي لن يتكرر.

لكن الحقيقة المؤلمة أن الزمن لا يعود،
وأن الماضي لا يفتح أبوابه لأحد مهما بكى أمامها.
نبقى واقفين خلف أسواره العالية،
ننظر إليه بقلوبٍ ممتلئة بالحنين،
وندرك أن بعض الأمنيات خلقت لتؤلمنا فقط.

وما أقسى أن تشاق إلى نفسك القديمة،
إلى تلك النسخة التي كانت تضحك من قلبها،
وتؤمن أن كل شيءٍ سيبقى كما هو،
دون أن تعلم أن الحياة تُجيد سرقة الأشياء الجميلة بهدوءٍ لا
يُسمع.

أحياناً لا أبكي لأن أحداً رحل،
بل أبكي لأن جزءاً مني رحل معه،

جزءًا لم أستطع استعادته مهما حاولت،
وكان بعض الأشخاص يأخذون معهم مفاتيح أرواحنا حين
يغادرون.

وما يؤلمني ليس أن الماضي انتهى،
بل أنني لم أكن أعلم وأنا أعيشه أنه سيكون الشيء الذي
سأفتقده طوال عمري.
لم أكن أعلم أن بعض اللحظات العابرة ستصبح يوماً أمنياتٍ
مستحيلة،
وأن بعض الضحكات التي مرّت عاديةً ستتحول إلى ذكرياتٍ
أبكيها في ليالٍ طويلة.

أحياناً أجلس مع نفسي وأتساءل:
هل اشتقت إلى أشخاصٍ رحلوا فعلاً؟
أم اشتقت إلى الشعور الذي كنت أملكه بوجودهم؟
إلى الطمأنينة التي كانت تسكن قلبي،

إلى تلك الأيام التي لم أكن أخاف فيها من الغد،
 ولم أكن أحمل كل هذا الثقل فوق روحي.
 لقد علمتني الحياة أن بعض النهايات لا تُغلق أبوابها أبداً،
 تبقى مواربةً داخل القلب،
 يدخل منها الحنين كلما ظننا أننا تعافينا،
 ويعيد إلينا كل شيءٍ دفعةً واحدة.
 ولذلك سيبقى في داخلي دائماً حنينٌ صامت،
 إلى زمنٍ لن يعود،
 وإلى قلبٍ كان أخفّ مما هو عليه الآن،
 وإلى أيامٍ لم أكن أعلم وأنا أعيشها... أنها ستكون أجمل ما
 سأفتقده يوماً.
 فبعض الخسارات لا نبكيها لأننا لم نتجاوزها،
 بل لأننا أدركنا متأخرين أنها كانت تحمل كل ما كنا نبحث عنه،
 وأن أجمل الأشياء في حياتنا... عرفنا قيمتها بعد أن أصبحت
 ذكر.

جمالُ الذكريات يؤلم قلبي وروحي،
فكلُّ شخصٍ مرَّ في حياتي
ترك لي أثراً خفيفاً... أستدلّ به عليه.

ومن بينهم...

ذلك الذي بقي معي أربع سنوات،

ترك في قلبي الكثير والكثير،

ذكرياتٍ لا تُحصى،

وأثراً طيباً لا يُمحى.

لا أتذكّره إلا بالخير،

وأبتسم كلما خطر على بالي،

رغم أن قلبي يمتلئ حنيناً إليه.

ليس الفراق ما يؤلمني...

بل جمال تلك الذكريات،

التي تهزّ قلبي كلما مرّت بي،

كأنّها تعيدني إليه للحظة،

ثم تتركني أكثر اشتياقاً.

أتمنى ألا تزول من قلبي،
ولا من ذاكرتي،
حتى وإن بلغت الثمانين،
وبدأت ذاكرتي تتلاشى شيئاً فشيئاً.
أتمنى...

أن أبقى أذكرك،
وأنا جالسةٌ وحدي،
على مقعدٍ هادئ،
في صمتٍ يشبه الغروب،
أبتسم...
كأنك ما زلت هنا،
وكأن كل ما كان بيننا
لم يكن ذكرى...
بل حياةً ما زالت تسكنني.

عامان بين الورق والدموع

بسبب غلطة قلب بريء، قضيت عامين في غرفتي، عالقةً بين
أفكاري التي لا تهدأ، بين أوراقٍ مبعثرة على الأرض كما لو
كانت تعكس فوضى روحي، وأقلام جافة بلا حبرٍ يشبه
صمتي، وملاهي الفضفاضة التي تتدلى على جسدي كما لو
كانت تحجب العالم كله، وشعري المبعثر الذي يسقط على
وجهي بلا رحمة، وعيوني التي دبلت من البكاء حتى كادت
أن تنسى كيف ترى.

كانت الغرفة صامتة، لكنها تعرفني أكثر من أي إنسان آخر.
الزوايا تحضني كما لو كانت أُمي، السقف يراقب صمتي بلا
حكم، والأرض تحت قدمي تحفظ كل دمعةٍ سقطت عليها
بصمت. كل ورقة على المكتب تحمل حرفاً مني، كل سطر
كتبته هو صرخة لم يسمعها أحد، وكل قلم جاف كان صديقي
الوحيد الذي لا يسأل، ولا يلوم.

في تلك العزلة، شعرت أن الوقت نفسه توقف عن الحركة،
 وأني أعيش خارج العالم، في مكانٍ لا يُقاس بالساعات، بل
 بالوجع والحنين والمشاعر الخفية. تعلمت أن أسمع صوت قلبي
 أكثر من صوت أي إنسان، أن أستمع لأفكاري بلا خوف،
 وأن أكون وحدي مع نفسي، وحدها تعرف أعماق أسراري،
 وأصدق رغباتي، وأصدق خوفي من أن أظل بلا فهمٍ أو
 اعتبار.

وبين كل هذا الصمت والفوضى، أدركت شيئاً واحداً: أن
 القلب، حتى لو أخطأ بريء، يستحق أن يعيش، يستحق أن
 يُسمع، وأن يكون هو وحده شاهداً على ما مرّ به، على كل
 دمة وقعت، وعلى كل لحظةٍ شعرت فيها أن العالم بعيدٌ جداً،
 وأني لم أكن فيه أبداً... سوى في هذا المكان الصغير، غرفتي،
 عالمي، وصوتي الوحيد.

فِيَّةٌ عَظِيمَةٌ... وَقَلْبٌ رَقِيبٌ.

كأنهما خُلِقَا ليجتمعا في صدري دون استئذان.
أجيد الفهم متأخراً،
وأُتقن تصديق ما لا يُقال،
وأمشي نحو الوجد وأنا أعلم الطريق،
لكني أظنّ أن قلبي سيغيّر نهايته هذه المرة.

لا أُهزم لأنني ضعيفة،
بل لأنني أحب بعمقٍ لا يعرف الحذر،
وأمنح الطمأنينة لمن لا يعرف كيف يحملها.
أصمت كثيراً، لا خوفاً،
بل احتراماً لما كنت أظنه حقيقياً.

الخبية ليست فيهم،
الخبية أن قلبي - رغم كل شيء -
ما زال رقيقاً بما يكفي
ليؤمن...
وشجاعاً بما يكفي
ليتألم وحده.
وما يؤلني حقاً،
أنني في كل مرة أعده فيها بالخطر،
أعود فأكسر وعدي.
أفتح الأبواب ذاتها،
وأمنح الثقة ذاتها،
وأنتظر المعجزات من الأماكن التي اعتادت أن تخذلني.
كأنني لا أتعلم من السقوط،
أو كأن جزءاً مني ما زال يؤمن
أن العالم سيعتذر يوماً عما فعله بقلب لم يكن يريد سوى أن
يُحب بصدق.

لقد تعبت من جمع شظاياي بعد كل خيبة،
ومن إقناع نفسي أن ما انكسر لم يكن مهمًا.
فبعض الكسور لا تُرى،
لكنها تترك في الروح صدعًا لا يلتئم تمامًا.

ومع ذلك...
ما زلت أستيقظ كل يوم بقلبٍ لم يفقد قدرته على الشعور،
وذلك أجمل ما فيّ،
وأقسى ما فيّ أيضًا.

مأهة في مأهات مختلفة،

بعضها صنعته بيدي،
وبعضها فرض عليّ دون إذن،
لكني كنت دائماً أنا من بقي في المنتصف،
أحمل قلبي وأتظاهر بالقوة.
علّمتني الأيام أن القلب أبصر من العين،
فما لم يطمئن له قلبي لم تقنعني به الوجوه،
وما شعرتُ به غريباً لم أعد أدفنه داخلي،
لأن الصمت الطويل يقتل ببطء،
وأنا تعبتُ من موتٍ لا يُرى.
فقدتُ شخصاً غالياً،
ودخلتُ عاماً ثانياً من الفقد
أشدّ قسوة على روحي،
تمرّ الشهور متشابهة في حزنها،
أغسطس كان ثقيلاً،

سبتمبر مليئاً بالانتظار،
أكتوبر أنهكني شوقاً،
ونوفمبر جاء صامتاً كأنه يعرف كل شيء..
لم أكن بخير...
أهملتُ دراستي،
وخذلتُ كتي،
وابتعدتُ عن كتابتي،
وتصالحْتُ مع الصمت حتى تملكني،
وصرتُ أجيد الجلوس وحدي أكثر من أي شيء آخر.
أعطي الاهتمام للجميع،
أترك أثراً طيباً هنا وهناك،
أُسند قلباً، أبسم لطفل،
وأعود آخر الليل
إلى غرفةٍ هادئةٍ
وصديقٍ اسمه الهاتف.
وحين يشتدّ عليّ التيه،

لا يسندني إلا القرآن،
ولا يحتويني إلا سجادة الصلاة،
أذهب إلى الله مثقلةً،
فيمدّ يده لقلبي
ويُبرد أوجاعاً لا يعرفها أحد،
أعصيه... وأجده أمامي.
أنا لستُ ضعيفة،
أنا فقط متعبة،
أبحث عن نفسي بين مآهاتٍ كثيرة،
وأؤمن - رغم كل شيء -
أن القلب الذي أبصر كل هذا
لا بدّ أن يصل يوماً.

لا أستطيع انظاھر

ولا أجيد العیش بنصف شعور أو نصف حضور،
أكره الأماكن التي لا أشعر فيها بالراحة،
ولا أطيق الجلوس وسط من أضطر لمجاملتهم كي يرضوا.
لا أستطيع أن أزيّف السلام لمن لا أطيعهم،
ولا أن أخفي ضيقي بابتسامة مصطنعة لا تشبني.
أنا لا أجيد التمثيل،
ولا أعرف كيف أخفي ملاح انكساري حين أتأذى،
ولا أستطيع أن أخفي محبتي حين أحب.
أعبر بصدق حتى وإن خذلني هذا الصدق،
وأمنح الأمان حتى وإن لم أجده،
وأضحك بعفوية من القلب حتى وإن كانت الدموع خلف
الستار.
أبدو بسطة... لكن داخلي عميق ومتعب،
لا أجيد الحذر، ولا أتعمد الغموض،

أنا فقط أعيش كما أشعر،
صافية، فوضوية، لكن حقيقية.
وإن كان هذا عيباً في زمنٍ يقدّس الأقنعة،
فليكن... أنا اخترت أن أكون نفسي، مهما كلفني الأمر

كنتُ دائماً أُفْرِطُ في الاهتمام... دون أن أنتبه لنفسي،
أوزّع من قلبي على كل من حولي كأنّه لا ينفد،
أرَبّت على الحزن في عيون الآخرين، وأهدد تعبيهم بصبري،
وأمنح الطمأنينة لكل من يمرّ بي، حتى وأنا أفتقدها.

أبتسم لطفلٍ يمرّ بي فأشعر أن ابتسامتي واجب،
وأمسك بيد من يتعثّر كأنني خلقتُ لأمنع السقوط،
وأصغي لصديقٍ منك، بينما داخلي أكثر إرهاقاً منه،
وأقنع الجميع أنني بخير... فقط لأنهم يحتاجون ذلك.

ثم في النهاية...

أعود إلى مكاني وحدي،
أغلق على نفسي الباب بهدوء لا يسمعه أحد،
وأخلع عني كل الأدوار التي لبستها طوال اليوم.

أجلس صامتة،

كأنني ألتقي بنفسي لأول مرة بعد يومٍ طويل من الغياب،
أنظر إلى هاتفي لا لأتواصل... بل لأؤكد أنني ما زلت
موجودة،

أن هناك من قد يسأل... أو يشعر... أو يلتفت ولو قليلاً.

لكن لا أحد يسأل قلبي كما أسأل قلوب الآخرين،
لا أحد يلاحظ هذا التعب الصغير الذي يتراكم بصمت،
وكأنني دائماً الحاضرة في حياة الجميع...
والغائبة عن حقي في أن أكون مطمئنة مثلهم.

الرسائل التي لم تُرسل

أؤمن أن لكل إنسان رسائل لم تصل يوماً إلى أصحابها،
رسائل كتبها في منتصف الليل، ثم أخفاها،
أو احتفظ بها في قلبه خوفاً من أن تغير شيئاً لا يريد تغييره.

كم من مرة رتبتُ الكلمات في رأسي،
وهيأتُ نفسي للاعتراف بكل ما أشعر به،
ثم تراجع في اللحظة الأخيرة،
وتركتُ الحديث حبيس صدري.

كانت هناك أشياء كثيرة أردت قولها،
اعتذارات تأخرت،
وعتابٌ استحق أن يُقال،

ومشاعر ظلت واقفة عند حافة البوح، ثم عادت صامته كما
جاءت.

بعض الرسائل لم أمنعها خوفاً من الرد،
بل خوفاً من ألا يأتي الرد الذي أتمناه.
فاخترت الصمت،
وتركتُ كلماتي تتكدس في داخلي عاماً بعد عام.

أحياناً أتساءل:

ماذا لو وصلت تلك الرسائل؟
هل كانت ستغير شيئاً؟
هل كانت ستعيد شخصاً رحل؟
أم كانت ستمنح قلبي سلاماً افتقده طويلاً؟

لا أعرف.

لكنني أعرف أن هناك جزءاً مني ما زال يحمل تلك الكلمات،
كأنها رسائل كُتبت لتبقى،
لا لتُقرأ.

وربما كانت بعض الرسائل أجمل وهي غير مُرسلة،
لأنها احتفظت بصدقها،
ولم تُفسدها خيبة الوصول.

أُصِبُّ الوَصْدَةَ

لا لأنني أكره الناس،
بل لأنني أستعيد نفسي حين أبتعد عنهم.
في وحدتي لا أجامل، لا أمثل،
ولا أضطر لارتداء وجوه لا تشبهني.
أجلس مع أفكاري طويلاً،
أصالحها مرة، وأخاصمها مرات،
لكنها—على قسوتها—صادقة،
لا تخذلني ولا تُزيّف حضورها.
ومع ذلك، أخرج أحياناً إلى الناس،
لا شوقاً إليهم،
بل خوفاً من أن أنسى لغتهم،
أن أفقد قدرتي على السير بينهم
دون أن أرتبك أو أنسحب.
أختلط بوجوه أعرف فراغها،

وأحاديث لا تترك أثراً،
وأقنع نفسي أن هذا طبيعي،
أن الاعتياد أرحم من العزلة التامة.
ثم أعود...
مثقلة أكثر مما خرجت،
فأدرك متأخرة
أن الوحدة لم تكن نقصاً،
بل كانت المكان الوحيد
الذي لا يطلب مني أن أكون
سوى نفسي.

أخاف أن أصبح قاسية

أكثر ما يُخيفني،

ألا أكسر قلبي فقط...

بل أن يتغير.

أخاف أن تُطفئني الأيام ببطء،

أن أفقد ذلك اللطف الذي أملكه،

وأن أصبح نسخةً من الأشياء التي آذتني يوماً.

أخاف أن أمرّ بجوار شخصٍ حزين

ولا أنتبه له،

أن أعتاد القسوة،

أو يصبح الاعتذار ثقيلًا على لساني.

لطالما كان قلبي رقيقًا،

يرقّ للناس بسرعة،

ويحزن لأجلهم بصدق،

حتى الذين كسروني

لم أستطع أن أكرهم كما ينبغي.
ولهذا أتمسك بهذا الجزء الناعم داخلي،
أحاول حمايته من العالم،
لأنني أعلم
أنّ الإنسان حين يفقد طبيته،
يفقد شيئاً لا يُعوّض أبداً.

تَعَوَّدْتُ أَنْ أُسَيِّ الطُّرُقَ وَهَدِي،

لا لَأَنِّي اخترتُ الوحدةَ، بل لَأَنِّي تعلَّمتُ أَنْ أُصغي لِنفسي
حين يصمت العالم.

صار الصمتُ رفيقي، لا يُربكني ولا يخذلني،
بل يُعيد ترتيب ما يتبعثر داخلي دون أن أشعر.

أتنفّس الهواء كأنني ألتقي به لأول مرة،
وأمشي بخطوات هادئة كأن الأرض تحفظ أثري وتفهمني،
لا أسرع ولا ألتفت كثيراً،
كأنني أبحث عن شيء لا أعرف اسمه بعد... لكنه يشبهني.

لم أعتد على وجود الآخرين بجانبني طويلاً،
ليس لَأَنِّي لا أحتاجهم،
بل لأن الأرواح التي مرّت لم تكن على نفس النعمة التي
بداخلي،

فكان القرب دائماً قصيراً... والفهم ناقصاً.

كنتُ أشعر أنني أمشي في طريق،
والآخرون في طرقٍ مختلفة تماماً،
تتقاطع للحظات، ثم يبتلع كلُّ منا صمته من جديد،
وكان اللقاء مجرد صدفة جميلة لا تملك حق البقاء.

ومع ذلك...
ما زلتُ أؤمن أن الطريق ليس غريباً عني،
وأن في وحدتي شيئاً يشبه العودة، لا الفقد،
شيئاً يجعلني أرى نفسي أوضح،
وأسمع صوتي الحقيقي حين يحتفي كل الضجيج.

أمام اختيارائي

أشعر أحياناً أنّ بعض اختياراتي كانت أكبر من قدرتي على التحمل.

أقف أمامها الآن مُنهكة،

لا أملك سوى التفكير في:

كيف صدّقت؟

وكيف ظننتُ أنّ قلبي سينجو من كلّ هذا؟

هناك قرارات اتخذتها بحبّ،

ثم دفعتُ ثمنها من راحتي وأعصابي وأيامي.

والمؤلم...

أنّ الإنسان لا يستطيع العودة ليُمسك بيد نفسه ويقول لها:

“لا تذهبي في هذا الطريق، ستتعبين كثيراً.”

أحياناً أنظر إلى نفسي
وأشعر أنني أحمّل نتائج كلّ شيءٍ وحدي،
بينما الآخرون أكملوا حياتهم بشكلٍ طبيعي.
ترهقني فكرة
أنّ بعض اختياراتنا لا تُفسد لحظة فقط،
بل تُغيّر شكل الروح بالكامل.
أصبحتُ أخاف من قلبي،
لأنّه دائماً يختار بصدق،
ثمّ يجلس بعد الخيبة
يحاول النجاة ممّا اختاره بنفسه.
وأقصى ما في الأمر،
أنّني لا أستطيع حتى كره نفسي،
فأنا في كلّ مرّة
كنتُ أختار بعاطفةٍ نقيّة،
بينما الحياة كانت أقصى من قلبي دائماً.

بعد محبة طويلة لا يرهل الإنسان كما كان

بل يتغير شيء في داخله إلى الأبد. الوعود التي كنا نُصدّقها بكلّ هذا اليقين، حين تنقطع فجأة، تترك في القلب خوفاً لا يهدأ، وكأنّ الروح تفقد قدرتها على الاطمئنان مرّة أخرى. يصبح الإنسان أكثر صمتاً، أقلّ اندفاعاً، وأشدّ حذراً من التعلّق، حتى ضحكته لا تعود كما كانت، يختلط بها شيء خفيّ من الحزن. بعد الحبّ الطويل لا تؤلّنا النهاية وحدها، بل يؤلّنا شكلنا بعدها، كيف تحوّلنا من أشخاصٍ مليئين بالحياة إلى أرواحٍ تخاف الشعور كي لا تنكسر من جديد. تنطفئ أشياء كثيرة دون أن نشعر؛ الشغف، الطمأنينة، والقدرة على تصديق الكلمات الجميلة. ويصبح الإنسان غريباً عن نفسه، ينظر إلى صورهِ القديمة ويتساءل: كيف كانت عيناى تلعبان بهذا الشكل؟ وكيف كنتُ أضحك من قلبي دون كلّ هذا الثقل؟ فالحبّة الطويلة لا تمرّ عبثاً، إمّا أن تُعيد تشكيل الإنسان بلطف، أو تترك داخله ندبةً لا يراها أحد... لكنه يشعر بها كلّ يوم.

لم أكن يوماً جبهة في صنع أصدقائٍ أبديين،
 فعلاقتي كانت دائماً تُشبه ابتسامةً من بعيد...
 خيطاً خفيفاً من الودّ سرعان ما يتلاشى دون ضجيج.
 لساني بارعٌ في خلق أحاديث قصيرة،
 لكن قلبي لا يعرف كيف يفتح نوافذه لكل مارة،
 ولا يعرف كيف يتمسك بأحدٍ للأبد.

كنتُ دوماً أكتشف أنّ الأرواح التي تُصادفني لا تُشبهني،
 وأن الطرق التي نمشيها لا تلتقي،
 فأعود إلى نفسي بلا خسائر... ولا مكاسب.

ومع ذلك، كنتُ بارعة في ما يشبهني فعلاً:
 فنجانُ قهوةٍ أصنعه كما لو أنني أداوي شرخاً صغيراً في
 صدري،
 وكرسيّ هادئٍ أجلس عليه،

أأمل أفاصل الءاة وكأني أارجها،
أراقب العابرين ءون أن أكون واءة منهم،
وأأء راحتي في السكون أكأر مما أأءها في الزحام.

ربما لست أأءة في صنع الأءقاء،
لكنني مأرة في صنع السلام مع نفسي،
وفي بناء عالم صغير يسع قلبي وءءه،
وهذا... يكفيني أكأر مما أأوقعه الناس.

نعم، صحيح أن القلب يرى ما لا تراه العين،
 ويشعر بما لا تستطيع الكلمات أن تشرحه،
 كأنه بوصلة خفية تقودني في طرقٍ لا أعرف نهايتها،
 فإن مال داخلي لشيء، صدقته قبل أن أفهمه.

لكنني لم أعد أتركه يقودني وحده كما كنت،
 فالقلب جميل... لكنه يتعب، ويخطئ أحياناً من شدة
 إحساسه،

ويبالغ في الخوف كما يبالغ في التعلق،
 فيجعلني أرى الأشياء أكبر مما هي، أو أقسى مما تحمل.

إن لم أرتح لوجود أحد، لا أستطيع تجاهل هذا الشعور،
 وإن شعرت بثقلٍ داخلي لا يزول، أتباطأ، أراقب، وأفكر،
 لكنني لم أعد أكتفي بالإحساس وحده،
 صرت أحتاج أن أفهم، أن أرى بوضوح، أن أطمئن بعقلي كما
 يطمئن قلبي.

أأعلم الآن أن الراحة ليست شعوراً لحظياً فقط،
بل قراراً هادئاً، ووعي لا ينجرّف بسرعة وراء الانطباع الأول،
وأأني أستحق أن أكون في مكان لا يرهق روحي،
ولا يجعلني في صراع دائم بين ما أشعر به وما أراه.

ما زال قلبي دليلي...
لكنني لم أعد أتركه يمشي وحده،
أمشي معه، وأمسك بيدي عقلاً أكثر هدوءاً،
حتى لا أضيع بين الإحساس والحقيقة.

لديّ غريزةُ أمومةٍ اهتوتني منذ الصغر،
 جعلتني أحنو على الطيور المنكسرة،
 وعلى الأرواح المتعبة،
 حتى أولئك الذين غادروني
 وتركوا في قلبي ندوباً لا تُرى.
 أعطفُ على الذين كسروا روحي،
 وأبكي ليلاً بسببهم،
 ثم أستيقظ وفي داخلي خوفٌ عليهم
 كأنّ قلبي لا يتعلم أبداً كيف يكره.
 أحنّ حتى على الذين هدموا الثقة بيني وبينهم،
 وأبحث لهم عن الأعذار رغم ألمي،
 وكأنّ روحي خلقت لتحتوي
 لا لتنتقم.

واحن واخاف علي حبيباً قاسي وادعوله بالراحه والسعادة
 قلبي لا يعرف طريق القسوة،

ولساني لا يُجيد إيداء من أحبهم،
 لا أستطيع أن أترك أحداً
 يسهر الليل بسبب كلمة جارحةٍ مني،
 ولا أحتمل فكرة
 أن أكون سبباً في حزن أحدهم.
 لهذا أحمل أوجاعي بصمت،
 وأبتلع الكلام الذي يؤذيني،
 وأختار الرحيل بهدوء
 بدل أن أترك في قلب أحدهم
 أثراً يشبه الألم الذي عشته.
 وربما لهذا أتعب كثيراً،
 لأنني أشعر بقلوب الآخرين أكثر مما ينبغي،
 وأمنحهم من الحنان
 ما كنت أتمنى يوماً
 أن يمنحه أحدٌ لي.

في اظهأ أنا وروءة وبسطة،
أأامل بأهة، وأأسم كأأ الأة لا أأقلني،
أءو قربة من الأمع وكأأني سهلة الفهم والوصول.

لكن في العمق...
يسكنني طفلاً صغير لا يكبر أبداً،
يلوآ للفرأ من بعيد بسرعة، يصدق الوعود من أول مرة،
أم يراجع فجأة حين يشعر أن شيئاً ما قد يتغير،
كأن الأذلان أأمالاً يأأبئ دائماً آلف أي لحظة جميلة.

ذلك الطفل لا يعرف كيف يأمي نفسه جيداً،
يمنأ ثقته بسهولة، ثم يربكته التجارب الصغيرة،
فيتعلم أن يراقب أكثر مما يأقرب،
وأن يفرأ بصوتٍ منخفض حتى لا يلفت الأأباه.

وفي كل مرة أبدو فيها قوية أو هادئة،
أكون في الداخل أحاول أن أطمئن ذلك الطفل،
أن أخبره أن ليس كل ما يقترب سيؤذي،
وأن ليس كل فرج ينتهي بفقد.

أنا لستُ متناقضة كما أبدو...
أنا فقط أحمل في داخلي براءةً تحاول أن تنجو،
وقلباً تعلم أن يحلم... بحذر.

مساءة عالية جدًا ورقيقة وعميقة

أفكر في الكلمة أكثر مما يجب،
أعيدها في رأسي ألف مرة،
كأنها لا تمر عليّ مروراً عابراً، بل تستقر في قلبي وتكبر داخله
بهذوء.

الأشياء الصغيرة عندي لا تبقى صغيرة،
نبرة صوت، نظرة، أو جملة عابرة...
قد تتحول في داخلي إلى عالم كامل من الأسئلة والتأويلات،
وأجد نفسي أبحث عن معنى لكل تفصيلة كأن حياتي تعتمد
عليها.

أُتعب نفسي بالتفكير أكثر مما أُنْعبها بالواقع،
وأشعر بكل شيء بعمقٍ يجعلني أفرح بشدة وأتألم بشدة،

لا أملك منطقة وسطى مريحة دائماً،
إمّا أن يمسنى الشيء كاملاً... أو يترك أثراً كاملاً.

ولهذا أبدو أحياناً هادئة من الخارج،
لكن داخلي لا يتوقف عن الحركة،
يفكر، يحلل، يشعر، ويعيد بناء المواقف من جديد،
وكان قلبي لا يكتفي بالفهم السريع، بل يبحث عن المعنى حتى
آخره.

أنا لا أبالغ في مشاعري...
أنا فقط أعيشها بصدق زائد عن الحد،
بصدق يجعل أي كلمة بسيطة... تتحول في داخلي إلى عالم
كامل لا يهدأ بسهولة.

فتاة من جبلٍ سريعٍ إلى هدِّ يُربك القلب،
 لكن روجي تمشي على مهلٍ شديد...
 كأنها خرجت من زمنٍ آخر
 ونُسيت هنا بالخطأ.
 أحنّ إلى صوت الأسطوانة وهي تدور ببطء،
 إلى الفونوغراف حين كان الغناء يُسمع بخشوع،
 إلى مصباحٍ قديمٍ يضاء بالكيروسين
 فتصير العتمة أكثر دفئاً لا أكثر خوفاً.
 أحبُّ دفاتر العناوين الورقية،
 وطابع البريد حين كان يحمل الشوق بدل الإشعارات،
 وصوت المذياع في نشرة الخامسة مساءً
 كأن العالم كان يُحكى لنا همساً... لا صراخاً.
 أجلس مع أم كلثوم وعبد الوهاب
 وكأن الزمن يلين قليلاً،
 وأشرب شايًا يبرد على مهل

لأن لا شيء كان يُطلب على عَجَل.
لا أبحث كثيراً في الشاشات،
فالكتب القديمة تعرف الطريق إلى القلب دون ضوءٍ أزرق،
والكلمات حين تُكتب باليد
تعيش أطول... وتشبه أصحابها أكثر.
لا أعرف لماذا أسكن هذا الحنين
إلى زمنٍ لم ألمسه يوماً،
لكنني أشعريقينا
أن روجي تعرفه جيداً...
وكأنني لم أولد متأخرة،
بل وُلدت هناك...
ثم تأخرتُ فقط في الوصول.

أشباهي الأربعون

أشباهي...

ضحكة طفلٍ صغير، وسكون ليلٍ طويل، وشمس دافئة في يومٍ بارد، وشتاءٌ لا ينتهي.

قدح قهوةٍ مرٍّ، ورائحة المطر، وموسيقى قديمة تُبكيني دون سبب.

كتابٌ مفتوح عند صفحةٍ منسية، ورسالة لم تُرسل، وصورة باهتة تحت وسادة.

وردٌ جافٌ احتفظتُ به، وسماءٌ رمادية تذكرني بشخصٍ راحل.

نظرةٌ نخرٍ من أمي، ودمعةٌ خوفٍ في عيني، وابتسامةٌ أخفي بها
وجعي، وكسرةٌ خبزٍ في يد فقير.

مدينةٌ مزدحمةٌ لا أنتمي إليها، وبيتٌ صغيرٌ أشتاقه، وقطعةٌ
شوكولاتةٍ تذيب الحزن، وصلاةٌ عند الفجر.

حديثٌ صادقٌ وسط ضجيجٍ كاذب، وغيمةٌ عنيدةٌ لا تمطر،
وقلمٌ يكتبني حين أعجز عن الكلام.

حُضْنٌ مؤجلٌ، وذكرى تُصرّ ألا تموت، وليلٌ طويلٌ بلا نجوم.

طفلةٌ بداخلي ما زالت تصدّق الوعود، وامرأةٌ تتظاهر بالقوة،
وفتاةٌ تكتب لتُشفى.

ونافذةٌ أراقب منها العالم بصمت، ومقعدٌ فارغٌ أحتفظ لصاحبه
بالحنين.

وطريقٌ طويل لا أعرف نهايته، وساعةٌ متأخرة لا يزورني فيها
سوى التفكير.

وأغنيةٌ أحفظها أكثر مما أحفظ نفسي، وحلمٌ قديم ما زال
يطرق بابي.
وورقةٌ كُتِبَ عليها اسمٌ لم أستطع نسيانه، وقرءٌ وحيد يرافق
سهراتي.

وأمنيةٌ أخاف أن أتخلّى عنها، وقلبٌ يتعب من الخيبة ولا يتخلّى
عن الأمل.
أشباهي الأربعون...
بين فقدٍ ونجاة،
بين قلبٍ يحيا بالحنين،
وروحٍ لا تزال تبحث عن نفسه.

يراً ما يقول لي الناس: "أنتِ تُشبهين فلانة"، "رأيتُ من تشبهك تماماً"،

أو حتى "صوتك يشبه صوت صديقتي القديمة".
أبتسم في كل مرة، لا دهشةً بل يقيناً،
كأن الله حين خلّقي لم يُرد أن يجعلني نسخةً وحيدة،
بل وزّع شيئاً من صفاتي على آخرين،
كأن ملاحي خرجت من رحم محبةٍ لا تُحصى.

أؤمن أن الله إذا أحبَّ عبداً، جعل له أثراً في وجوه الناس،
يجعلهم يرونه في مَنْ حولهم كي لا يغيب حضوره أبداً.
فكل من قال إنني أشبه أحداً،
هو في الحقيقة يشهد أن شيئاً من نوري وديّ قد تسرّب إلى
غيري.

وأحب أن أصدق أن في كل من يشبهني،
جزءاً صغيراً من روحي،

كأنا متصلون بخيوط خفية من اللطف الإلهي،
تجمعنا رغم المسافات، رغم اختلاف الأسماء والوجوه.
فأنا لا أغضب حين يقول أحدهم إنني أشبه غيري،
بل أشكر الله الذي جعلني أثراً يُرى،
وصدىً يُشبهه الكثيرون،
تذكّراً من جمالٍ لم يكن صدفةً،
بل هدية من السماء.

مُنهكة من فرط الشعور

من أصعب الأشياء أن تُعطي قلبك بكل صدق،
أن تُحب دون حساب،
وأن تضع مشاعرك كلها في مكانٍ واحد،
ثم تكتشف أن ما عشته لم يكن مجرد علاقة،
بل رحلة طويلة مررتَ فيها بكل أنواع الشعور التي يمكن لقلبٍ
أن يحتملها.

جربتُ كل مشاعري مع شخصٍ واحد،
الحب والحنين، والاشتياق والدفء،
الأمان الذي يجعل الروح مطمئنة،
والامتنان الذي يجعل وجود شخصٍ ما نعمةً لا تُقدَّر بثمن.

ثم جربتُ الوجه الآخر من الحكاية،

الفقد الذي يسرق الطمأنينة من القلب،
والخذلان الذي يترك خلفه أسئلة لا تنتهي،
والألم الذي لا يُرى لكنه يُرهق الروح حتى آخرها.

كأنني عشتُ أعماراً كاملة في تجربةٍ واحدة،
فما من شعورٍ إلا ومرّ بي،
ولا وجعٍ إلا وترك أثره في مكانٍ ما داخلي.

أحببتُ بصدقٍ جعلني أعطي أكثر مما أملك،
واشتقتُ حتى ظننت أن الشوق كائنٌ يسكن صدري،
وانتظرتُ كثيراً حتى تعبت من الانتظار نفسه،
وخسرتُ أشياء لم أكن أتصور يوماً أنني سأخسرهما.

ومع الأيام لم أعد كما كنت،
شيئاً فشيئاً خفت ضوضاء المشاعر بداخلي،
لا لأنني شفيت،

بل لأن القلب لا يستطيع أن ينزف إلى الأبد.

أصبحتُ أقل اندفاعاً نحو الأشياء،
وأقل انبهاراً بالأشخاص،
وأكثر حذراً في منح قلبي لمن يقترب منه.

لم تعد الكلمات تُربكني كما كانت،
ولا الوعود تُدهشني كما كانت،
ولا اللقاءات تُشعل في داخلي ذلك الفرح القديم.

أصبحتُ فقيرة المشاعر على غير عادتي،
لا لأنني فقدت القدرة على الحب،
بل لأنني استهلكتُ جزءاً كبيراً من روعي في تجربةٍ واحدة.

أشعر أحياناً أنني أعطيتُ شخصاً واحداً نصيب أعوامٍ كاملة
من الحب والاهتمام والحنين،

حتى لم يتبقَّ لديَّ ما أقدمه بالوفرة ذاتها.

وها أنا الآن أمشي بهدوءٍ لا يشبهني،
أراقب الأشياء من بعيد،
وأخفي في أعماقي قلباً كان يوماً ممتلئاً بالحياة،
ثم أنهكه الشعور حتى تعلّم الصمت.

ولعل أكثر ما يؤلني ليس ما خسرت،
بل أنني فقدتُ تلك النسخة مني،
النسخة التي كانت تشعر بكل شيءٍ براءةٍ كاملة،
وتؤمن أن قلبها سيبقى ممتلئاً إلى الأبد.

لو حدث ما تمّنت

كم مرّة جلستُ أتخيل كيف كانت ستبدو حياتي لو حدث ما
تمنّيت،

لو سارت الطرق كما رسمتها في خيالي،
ولو وصلت الأحلام إلى أبوابها دون أن تضيق في منتصف
الطريق.

أتساءل أحياناً عن النسخة التي كان يمكن أن أكونها،
لو بقي بعض الأشخاص،
ولو لم تغلق بعض الأبواب في وجهي،
ولو أن الأمنيات كانت تُستجاب لجرد صدقها.

ربما كنتُ سأضحك أكثر،
وربما كان قلبي أخفّ ممّا هو عليه الآن،

وربما كنتُ سأعيش حياةً مختلفة تماماً عن هذه التي أعيشها.

لكني كلما أطلتُ النظر إلى تلك الاحتمالات البعيدة،
أدركتُ أنني لا أشتاق فقط إلى ما لم يحدث،
بل أشتاق إلى الشعور الذي كنتُ أحمله وأنا أنتظره،
إلى ذلك اليقين الجميل بأن الغد سيأتي بما أريد.

لقد بكيتُ كثيراً على أشياء لم أحصل عليها،
وحزنتُ على أحلامٍ ظلتُ معلقة بين الواقع والخيال،
ووقفتُ طويلاً أمام أبوابٍ لم تُفتح مهما انتظرت.

كنتُ أظن أن سعادتِي تقف خلف تلك الأمنيات،
وأن حياتِي لن تكتمل إلا بها،
لكن الأعوام مرّت،
واكتشفتُ أنني ما زلتُ هنا،
أتنفّس، وأحلم، وأواصل طريقي رغم كل شيء..

ربما لو حدث ما تمنيت،
لما أصبحتُ الشخص الذي أنا عليه الآن،
ولما تعلّمتُ كيف أنهض بعد الخيبة،
وكيف أجد النور في أيامٍ لم يكن فيها ما يدعو للنور.

هناك أشياء تمنيتها بكل قلبي ولم تحدث،
وأشخاص دعوتُ الله أن يُبقيهم في حياتي فرحلوا،
وأبوابُ طرقها كثيراً وبقيت مغلقة.

ومع ذلك...
أؤمن أن للحياة حكمةً لا نفهمها دائماً،
وأن بعض الأمنيات لا تتحقق لأنها ليست لنا،
وأن بعض الخسارات كانت نجاةً لم نكتشفها بعد.

لهذا لم أعد أسأل:

ماذا لو حدث ما تمنيت؟

بل صرتُ أسأل:

كم من الخير جاءني لأن ما تمنيت لم يحدث؟

وربما في يومٍ ما،

سأنظر إلى كل ما فقدته، وكل ما انتظرتُه عبثاً،

وأبتسم...

لأن الحياة منحني طريقاً آخر،

لم أكن أريده في البداية،

لكنه كان الطريق الذي احتجته فعلاً.

الاعتبار

أخاف الاعتياء أكثف من خوفى من الألم نفسه،
 فالألم حين يأتي نعرف أنه يؤلمنا،
 أما الاعتياء فيتسلل إلينا بهوءٍ شءىء،
 حتى لا ننتبه أنه غيرنا.
 فى البءاءة كانت بعض الأشياء تُخزنى كثرًا،
 وكان الغياب يترك فى قلبى فراغًا واضحا،
 وكانت الوحءة ثقيلة إلى حدٍ يجعلنى أهرب منها،
 ثم مرّ الوقت... واعتءت.
 اعتءت أن يرحل من يرحل،
 وأن تتبءل الوجوه والأماكن،
 وأن تمرّ الأيام ءون أن أءء من أنتظره أو ينتظرنى،
 حتى صار ما كان يؤلمنى يومًا جزءًا عاءيًا من حياتى.
 أصبح الغياب أمرًا مألوفًا،
 والوحءة رفيقة لا تُفاجئنى،

والخذلان حكاية أعرف نهايتها قبل أن تبدأ.
 ولم يكن الأمر تعافياً كما ظننت،
 بل كان اعتياداً طويلاً على الوجد،
 حتى إنني أحياناً أتساءل:
 هل تجاوزت حقاً؟
 أم أنني فقط تعلمت كيف أعيش مع ما يؤلمني؟
 أخاف من تلك اللحظة التي نتوقف فيها عن الدهشة،
 حين لا يعود الغياب يلفت انتباهنا،
 ولا يعود الفقد يهزّنا كما كان،
 فنظن أننا أصبحنا أقوى،
 بينما الحقيقة أننا أصبحنا أكثر اعتياداً.
 فالاعتیاد لا يداوي الجروح،
 إنه فقط يجعلنا نتعايش معها،
 نجلس إلى جوارها كل يوم حتى ننسى شكل الحياة قبلها.
 وكم هو مخيف أن نستيقظ يوماً،
 فنكتشف أننا لم نعد ننتظر أحداً،

ولا نشاق كما كنا،
ولا نحزن كما كنا،
ليس لأن قلوبنا شُفيت...
بل لأنها تعبت من المقاومة.
ربما لهذا أخاف الاعتياد،
لأنه لا يسرق الأشياء منّا دفعةً واحدة،
بل يأخذها ببطءٍ شديد،
حتى نصبح غرباء عن مشاعرنا القديمة،
وننظر إلى أنفسنا متعجبين:
متى أصبحتُ أتقبل ما كان يكسرنى؟
ومتى صار ما كنت أخشاه جزءاً عادياً من أيامي؟
أحياناً لا يكون أصعب ما في الألم أنه يؤلم،
بل أن يأتي يومٌ لا يؤلم فيه كما كان،
فندرك أن قلوبنا لم تنتصر عليه...
بل اعتادت وجوده.

الاشتاق لشئ مجهول

يزورني الحنين أحياناً بلا سبب واضح،
 كأن شيئاً داخلي ينادي على شيء لا أعرف اسمه،
 ولا أعرف أين يوجد،
 لكنه يترك في صدري هذا الفراغ الهادئ المربك.

أشتاق... لكن لا أعرف إلى ماذا،
 إلى مكان لم أزره،
 أو زمن لم أعشه،
 أو شعور مرّ بي يوماً ثم نسيته دون أن أدرك.

أحياناً أشعر أنني لا أبحث عن أشخاص،
 بل عن حالة كاملة من الطمأنينة،
 عن خفة داخلية لا أثقلها التفكير،

عن راحةٍ لا تحتاج تفسيراً.

ذلك الاشتياق لا يشبه الحزن،

ولا يشبه الفقد،

هو أقرب إلى فراغٍ ناعم،

يجعلني أنظر إلى كل شيءٍ حولي وأشعر أن هناك "شيئاً ناقصاً"
لا أستطيع تحديده.

أمشي بين الأيام وكأنني أفتش عن شيءٍ ضاع مني منذ زمن،
شيءٌ لم أملكه أصلاً،
ومع ذلك أشعر أنه كان لي يوماً ما.

وفي كل مرة أحاول أن أفسر هذا الشعور،
أكتشف أن الكلمات تعجز عنه،
لأنه ليس فقداً واضحاً...
بل رغبة خفية في حياةٍ مختلفة،

أهدأ، أصدق، وأقرب لروحي.

ربما لهذا يزورني الاشتياق بلا وجه،
لأنه لا ينتمي لشخصٍ أو مكان،
بل ينتمي لنسخةٍ مني لم أعشها بعد،
لكنني أعرفها جيداً... وأفقدتها دون أن ألتقي بها.

لا أعرى إلى أين أمضى

لكنى أمضى على أى حال،
كان الطريق لا يمنحنى خياراً سوى الحركة،
حتى وإن كان داخلي لا يعرف وجهته.

أحياناً أشعر أننى واقفة فى منتصف كل شىء،
لا أنا فى البداية التى كنت أظنها،
ولا أنا فى النهاية التى أستعد لها،
فقط بينهما... أتنفس وأتساءل.

أمشى وكأننى أبحث عن معنى لا يُقال،
عن اتجاهٍ يطمئن قلبى قبل خطواتى،
لكن كل الطرق تبدو متشابهة حين يثقل التفكير،
وكل الإجابات تتأخر حين نحتاجها.

ليس ضياءً واضحاً،
بل حالة هادئة من التيه،
أن تبدو الحياة مستمرة من حولك،
وأنتِ داخلِك لا تزالين تحاولين فهم “لماذا أنا هنا؟”.

أتعثر في أسئلة لا أملك لها جواباً،
وأكل رغم ذلك،
لأن التوقف لا يغيّر شيئاً،
ولأنني لا أعرف غير أن أستمّر حتى أفهم.

ومع كل خطوة،
أترك جزءاً من حيرتي خلفي،
وأحمل جزءاً آخر أمامي،
وكأنني أتعلّم شيئاً بسيطاً بصعوبة:
أن الطريق لا يكشف نفسه مرة واحدة،
وأن اليقين لا يأتي دفعةً واحدة،

بل يتكوّن ببطء، مع كل تجربة.

ورغم أنني لا أعرف إلى أين أمضي،
إلا أنني أكتشف شيئاً صغيراً في كل مرة:
أنني لست مضطرة أن أعرف كل الإجابات الآن...
يكفيني أنني ما زلت أمشي.

الفصول تجاه الناس

أحياناً لا أريد الاقتراب من الناس،
ولا أريد أن أكون جزءاً من حياتهم،
لكنني أحب أن أراقبهم من بعيد،
كأنني أكتفي بفهمهم دون أن أشرك نفسي فيهم.

ألاحظ تفاصيل صغيرة لا ينتبه لها أحد،
طريقة ضحكهم، نظرة عيونهم، صمتهم بين الجمل،
وأحاول أن أقرأ ما خلف الكلمات أكثر مما أسمعها.

ليس لأنني أحب التطفل،
بل لأنني أجد في الناس عوالم مختلفة تماماً،
كل شخص يحمل قصة لا تُقال بسهولة،
وأنا أحب أن أتخيلها بصمتي.

أحياناً أشعر أنني أفهم الآخرين أكثر مما أفهم نفسي،
ألتقط مشاعرهم بسرعة، وأتعاطف معهم دون أن يطلبوا،
لكنني في المقابل أبقي بعيدة،
كأن بيني وبينهم مسافة أمان لا أريد تجاوزها.
أراقب الحياة وهي تمشي في وجوه الناس،
في تعبهم، في ضحكاتهم، في صمتهم الطويل،
وأتساءل دائماً:

كم من الحكايات تُخفي خلف هذا الهدوء الظاهر؟

ورغم هذا الفضول...
لا أبحث عن الدخول في حياة أحد،
يكفيني أن أفهم من بعيد،
أن أرى دون أن أرى،
وأن أكتفي بأن أكون شاهدة هادئة على عالم مليء بالتفاصيل
التي لا تُحكي.

الخوف من التكرار

ليس خوفي الأكبر أن أفقد شيئاً،
بل أن أعيش نفس الألم مرة أخرى بشكل مختلف،
أن تتغير الوجوه وتبقى النتيجة نفسها،
أن أظن أنني بدأت صفحة جديدة... ثم أكتشف أنني أقرأ
نفس السطر القديم لكن بحروف مختلفة.

أخاف أن تتكرر المشاعر لكن بأسماء جديدة،
أن أعطي بنفس الصدق، بنفس النية، بنفس القلب المفتوح،
ثم أصل في النهاية إلى نفس الشعور الذي ظننت أنني تجاوزهته،
كأن الحياة تُعيد اختباري في نفس السؤال كل مرة.

أخاف أن أتعلم متأخراً،
أو أن أظن أنني أصبحت أذكى عاطفياً،

ثم أجد نفسي أقع في نفس التفاصيل الصغيرة التي كانت
ترهقني من قبل،
بنفس الطريقة... لكن بوعي أكبر وألم أعمق.

أخاف أن أفتح قلبي بذات الشجاعة القديمة،
وأمنح الثقة بذات البساطة التي كنت أظنها قوة،
ثم أكتشف أنني لم أكن أقوى...
بل كنت فقط أصدق من اللازم.

ولهذا أصبحت أراقب كل شيء قبل أن أقرب،
ليس لأنني لا أريد الحب،
بل لأنني أخشى أن يكون الحب نفسه نسخة مكررة من
خساراتي السابقة.

أراقب الكلمات، النبوة، التفاصيل الصغيرة،

كأنني أبحث عن إشارة خفية تقول لي: توقفي قبل أن يتكرر كل شيء..

ومع ذلك...

رغم كل هذا الحذر،
ما زال في داخلي جزءٌ يصدق،
وجزءٌ آخر يخاف،
وجزءٌ ثالث لا يعرف كيف يختار بينهما.

ربما هذه هي المعضلة الحقيقية...
أنني لا أخاف التكرار فقط،
بل أخاف أن أكون أنا كما أنا...
وأقع في نفس القصة من جديد.

النخبة الهادئة

أحياناً لا أشعر أنني تعافيت،
لكنني أكتشف أنني لم أعد أنهار كما كنت،
وهذا وحده يكفي لأدرك أنني تجاوزت أشياء كثيرة دون أن
أنته.

لم تكن النجاة عندي صاحبة،
لم تكن انتصاراً واضحاً ولا فرحاً كبيراً،
بل كانت هدوءاً تدريجياً يتسلل إلى أيامي دون إعلان،
حتى صرت أتنقّس بشكلٍ أخفّ من قبل،
وأحمل الأشياء بثقلٍ أقل قليلاً.

نَجَوْتُ مِنْ أَشْيَاءَ ظَنَنْتُ يَوْمًا أَنَّهَا سَتَكْسِرُنِي إِلَى الْأَبَدِ،
وَمِنْ مَشَاعِرَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي لَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا أَبَدًا،

لكنني خرجت...

ليس كاملة،

بل مختلفة.

أصبحت أهدأ أمام ما كان يُبكي،

وأبطأ في الانفعال،

وأكثر قدرة على الصمت بدلاً من الانهيار،

كأن الحياة علمتني كيف أعيش دون أن أعلن ذلك.

وفي لحظات صمتٍ طويلة،

أدرك أن النجاة لا تعني النسيان،

ولا تعني أن كل شيء أصبح بخير،

بل تعني أنني ما زلت هنا...

رغم كل ما مرّ.

ربما لم أعد الشخص نفسه الذي كان ينهار بسهولة،

لكنني أيضًا لم أعد الشخص الذي لا يتألم،
أنا فقط بين الاثنين...
أعرف الألم جيدًا،
لكنني لم أعد أسمح له أن يُسقطني كما كان يفعل.

وهذا وحده...
يكفي لأقول إنني نجوت.

"أخيراً..."

لم أعد أبحث عن إجاباتٍ لكل شيء..
تعبتُ من ملاحقة الأسباب، ومن سؤال نفسي: لماذا حدث
هذا؟ ولماذا رحل ذاك؟ ولماذا لم تسر الحياة كما تمنيت؟
أدركتُ متأخراً أن بعض الأسئلة لا خلقت لتُجاب،
وأن بعض الأبواب أغلقت لأن بقاءها مفتوحة كان سيؤذينا
أكثر.

لم أعد غاضبة من الماضي،
ولا أحاول تغيير نهاياته في خيالي كل ليلة.
فما حدث قد حدث،

وما ضاع لن يعود،
وما كتب لنا سيصل إلينا ولو بعد حين.
تعلمتُ أن أترك الأشياء تمضي،
لا لأنني لم أعد أهتم،
بل لأنني أهتم بنفسي أخيراً.

لقد خسرْتُ الكثير في طريقي،
 أشخاصاً، وأحلاماً، وأجزاءً من قلبي،
 لكنني وجدت شيئاً لم أكن أبحث عنه... وجدتني أنا.
 وجدت تلك الفتاة التي كانت تُحمل نفسها ذنب كل شيء،
 وتنتظر من الآخرين أن يمنحوها قيمتها،
 وتخاف من الرحيل أكثر مما تخاف من البقاء في الأماكن
 الخطئة.

أما الآن،
 فلم أعد أريد أن أكون نسخةً مثالية من نفسي،
 يكفيني أن أكون حقيقية.
 وإن سألتني الحياة بعد كل هذا:
 ماذا خرجت به من متأهاتك؟
 فسأقول:

خرجتُ بقلبٍ متعب، نعم...
 لكنه أكثر حكمة.
 وبروحٍ تحمل بعض الندوب...

لكنها لم تفقد قدرتها على الإيمان بأن القادم قد يكون أجمل مما
مضى.

ولأول مرة منذ زمنٍ طويل...
لا أبحث عن طريقٍ جديد،
ولا عن شخصٍ جديد،
ولا حتى عن نسخةٍ جديدةٍ مني.
أريد فقط أن أمشي بسلام.

الحامة

وهنا تنتهي الكلمات...

لكن بعض المشاعر لا تنتهي.

أغلقتُ هذه الصفحات، وما زالت في القلب حكاياتٌ لم
تُكتب، ودموعٌ لم تُذرف، وأحاديثٌ طويلةٌ لم تجد من يُنصت
إليها.

لم تكن هذه الخواطر سوى محاولاتٍ متعثرة للنجاة، ورسائل
ألقتها روحٌ مُرهقة في طريقها، لعلَّ أحداً يلتقطها ويشعر أنه
ليس وحده.

فإن وجدتَ نفسك بين هذه السطور، فاعلم أن الألم لا يجعلنا
متشابهين في الحكايات، لكنه يجعلنا متشابهين في الشعور.
وربما كانت المتاهة التي أخافتنا طويلاً، ليست سوى طريقٍ
قادنا إلى أنفسنا.

أما أنا...

فأترك هنا بعضاً من حزني، وبعضاً من قلبي، وبعضاً من روحي
التي حاولت أن تتحدث حين عجزت الكلمات.
وإن كان لا بدّ من نهاية، فلتكن هذه النهاية بدايةً لسلام لم
نجدّه بعد، وبدايةً لطريقٍ أقلّ وحشة من كل الطرق التي
عبرناها وحدنا.

إلى لقاءٍ آخر... في متاهةٍ أخرى، أو في نسخةٍ أفضلٍ منّا.

يظن الناس أن المتاهات تُبنى من الحجر...

لكن أصعب المتاهات تلك التي تُبنى داخل القلب.

هناك، حيث لا خرائط، ولا علامات، ولا أحد يستطيع أن يخبرك أي
الطرق أقرب إلى النجاة.

كل ما ستقرأه هنا، كُتب في محاولة لفهم تلك المتاهة، لا للهروب
منها.

فربما...

حين تنتهي من هذه الصفحات، لن تجد الطريق.

لكن قد تجد نفسك.

مناهار
حبيرة حمود